أحاديث نزهــة صباحية

انه صباح ربيعي أفلت من الشتاء.. ذهبت وعفيف لنبدل بيجامة لنضال، ذهبنا سيرا الى سوق الحميدية.. تحدّثنا في شؤون كثيرة.. قال: بدأ الشيوعيون يتبنون نظريتي بعد أن حاربوها طويلا.. كان يشير الى التقرير السنوي الذي نشره الشيوعيون في نضال الشعب وبعثوا منه بنسخة الينا، وأضاف: "ولكنهم لا يشيرون الى المصدر الذي يستقون منه!" قلت له حين سألني فيما اذا كنت قرأته: "بلى فعلت" "انهم يقولون أنه ربما كان أحد الأسباب الهامة لانهيار المعسكر الإشتراكي هو عدم فهمنا أن العالم وحدة متفاعلة.. لاحظي أنهم يتجنبون تعبيري جملة المجتمعات الإنسانية وتفاعلها فيما بينها بشكل يؤثر مجتمع على آخر، حين قلت بأن الإشتراكية لا يمكن لها أن تبنى في بلد واحد.. وبالرغم أن التقرير فيه مغالطات ونفاق الا أنهم بدأوا يعترفون مؤخرا بأننا نعيش مرحلة انتقال عالمية، وأن الإشتراكية لم تبن حتى الآن في أي مكان في العالم..

كلمة الوحدة انتقلت بنا الى جوهر ديانات التوحيد، وكيف فهمها الأوائل.. قال أن المسيح كان يشعر بتلك القوة الهائلة التي تعمر الكون.. والإسلام فهمها بالجسد والروح ونحن في القرن العشرين نفهمها بطريقة علمية بمفهوم الطاقة والمادة.. الطاقة هي القوة التي تصدر عن المادة المتفاعلة معها، وهما معا يتطوران.. الطاقة غير منفصلة عن المادة وليس لهاحياة خاصة بها.. لقد أدرك المسيح ذلك، ولكن الرسل حوله لم يفهموه.. قال لهم أنه ابن الأب باعتباره جزءا من الكون، ففهموا الأمر بشكل حسّي. قال لهم وقد أحس بدنو أجله "حتى تلحقوا بي يجب أن تولدوا مرّتين" فقالوا له "أمن المعقول أن نعود الى أرحام أمهاتنا ونولد مرة ثانية؟" قال لهم "حتى تولدوا يجب أن تتحولوا الى ماء ينفذ الى كل مكان، الى روح"..

أو بمفهوم عصري الى طاقة تنقل المادة الإنسانية الى مرحلة جديدة من الفهم والإدراك والعلاقات البشرية..

محمد عرف الأناجيل وهو في غار حراء.. انه نبي أمي بمعنى أنه من أمة لم يكن لها كتاب سماوي تهتدي بهديه، ولا تعني أنه كان جاهلا بما حوته الكتب المقدسة قبله، وحين جاءه الوحي كان يردد مخاطبا المسيح "أأنت قلت للناس اعبدوني وأمي من دون الله؟" كان يرفض التأليه والتجسيد وكل خرافات الوثنية التي دخلت الى المسيحية، ومفهوم انفصال الطاقة عن المادة أو الجسد عن الروح.. ورفض أيضا تفسير الروح الكلية الخالقة للكون كما فعل معاصرو المسيح.. وجاءه الوحي "ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي"..

كان همه منصبا على وحدة الإنسان وتساويه أمام قوة الخلق الأزلية وتحريره من عبودية الأوثان ومجتمعاتها الظالمة التي تستعبد الإنسان للإنسان..

"وخلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا بأن أكرمكم عند الله أتقاكم"

لتعارفوا بمعنى لتتبادلوا المعروف وتنتهوا عن الظلم وليس بالمعنى الذي يتبادر للذهن في أن يعرف بعضكم بعضا..

وتحدّث أيضا عن الكتب السماوية وقال "ان التوراة تاريخ، والأناجيل سيرة المسيح كما جاءت على ألسنة تلامذته.. انها تشبه الأحاديث في الإسلام، أما القرآن فهو الوحي، حصيلة تفاعل الإلهي والبشري في أكمل صورة.. وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب وأغضبه من أبي هريرة، الذي عدّت أحاديثه عن الرسول ب 5300 حديث بالرغم أن ملازمته له لم تتجاوزالأعوام الأربعة، والذي أخذ بالإرتزاق من تذكر أحاديث الرسول وقصها على الناس.. لقد خشي عمر أن تمرّ دعوة الإسلام من خرم إبرة ذاكرة أبي هريرة! ضحكت وقلت:

–لاتنتظر مني أن أضيف هذا الحديث الى أحاديث نزهتنا الصباحية.. فانني أحب أن تكتب بنفسك أفكارك النظرية، فأنت أدق في التعبير عما يجول في خاطرك وأصدق.. ولهذا حرصت أن لا أسجل عنك الاّ الأحاديث التي لها علاقة بالوقائع والتاريخ فأنا أنقلها حتى باللهجة التي رويتها في حينها.. وما كان علي الاّ أن أجمعها من دفاتري الكثيرة التي سجلتها فيها على مدى سنين طويلة.. وسترى أنها صادقة كل الصدق ولم تمر من خرم ابرة ذاكرة أبي هريرة.. فالذاكرة لاتؤتمن ولولا أنني سجلتها في حينها لما صدقت أنني نفسي التي كتبتها!..

* * *

ذكريات الفريق عفيف البزري

أنا من الجيل الذي ولد في الحرب العالمية الأولى وشاهد تغيرات الانسانية الحاسمة في القرن العشرين. عشت في بيت محافظ شديد التمسك بالتقاليد المتفتحة غير الوثنية.من عائلة كالعشيرة في اتساعها الا أنها كثيرة الارتباطات متعددة القرابات في بلدها: أصولها في صيدا، مسقط رأسي عام 1914، وفروعها في أكثر من قطر عربي مشرقي. وجدي لأمي الشيخ يوسف الأسير أحد مشاهير رواد النهضة العربية الفكرية والأدبية في القرن التاسع عشر. وأبي وارث لثروة لم يعمل على تنميتها ولا على حفظها، وانما استهوته مشاكل الدفاع عن المسلمين ونظامهم في زمان كان بنيان الخلافة في تهافته وانحلاله قد وصل الى نهايته. فكان في تيار المدافعين عن الخلافة العثمانية حتى سقطت فانضم الى الحركة الفيصلية في لبنان وكافح مع من كافح ضد

من عملوا على تأييد مجيء المستعمرين الفرنسيين واحتلالهم لوطننا. وبعد سقوط لبنان في قبضة هؤلاء المستعمرين وإغلاق المعتمدية الفيصلية في بيروت نزح الى دمشق مع من نزح من العاملين في تلك المعتمدية التي كان الشهيد البطل يوسف العظمة على رأسها قبل أن يصبح وزيرا للدفاع في الحكومة الفيصلية السورية. وعمل والدي في القضاء السوري في الحكومة العربية الفيصلية ثم في عهد الانتداب ومع مرور الزمن تضخمت عائلته وقلت موارده، الا أنه ظل يكافح بشرف وإباء حتى آخر حياته جاعلا من الاستقامة والصدق مع فرائض الدين عالمه المفضل.

وكان لأمي ككل الأمهات، أثر حاسم في تكوين نفسيتي وبناء أسس حياتي الروحية. فهي اذ نشأت في بيت علم أسسه جدها الشيخ يوسف الأسير تتمتع بثقافة اسلامية واسعة فتقرأ القرآن وتحفظ قسما كبيرا منه وتلم بشكل جيد بأشعار العرب وأمثالهم وسيرهم وتتعلق تعلقا شديدا بالحضارة الاسلامية فكان حديثها لا يخلو أبدا من لمحة من تاريخها المجيد توردها على مسامعنا بلغتها السهلة المحببة. وان أنس لا أنسى مواقف ثلاثة لها :

الأول: عندما لاقتني أول مرة إثر عودتي الى البيت في حلب من محاولة للالتحاق بثورة رشيد عالي الكيلاني. ان اللسان والقلم ليعجزان عن وصف ما استولى عليها في تلك اللحظات من أحاسيس كانت مزيجا من الشوق الجارف والحب العارم والرضى الممزوج بالفخر بما أقدم عليه ولد من أولادها في باكورة شبابه. كان القلق والتوتر النفسي قد استوليا على الأهل منذ سماعهم من الناس بتركي الجيش الذي كان حينذاك بقيادة فرنسية للالتحاق بثورة قومنا في العراق على الانجليز في ظروف الحرب العالمية الثانية. وكان يزيد في قلقهم مجيء الدرك الفرنسي لتفتيش البيت والبحث عتي عددا من المرات أثناء غيابي الطويل نسبيا والتجائي عند بعض الأصدقاء في بلد آخر (حماة) بعد محاولتي تلك. وكان ظهوري المفاجئ في البيت بعد تلك الغيبة مثيرا عند الأهل شعورين متناقضين: الارتياح بمشاهدة الابن حيا يرزق والخوف عليه من سلطات الاحتلال التي أصبحت انجليزية ديغولية في تلك الأثناء بعد احتلال الانجليز ومعهم الديغوليون للقطر السوري. فكان الهم الأول للوالدة بعد هدوء عواطف اللقاء أن تبعدني عن خطر الوقوع في أيدي الانجليز الذين كنا نسمع ما كانوا يرتكبونه في بغداد من فظائع ضد كل من أيد ثورة الكيلاني عليهم، فهبت كاللبؤة تفتش لي عن مخرج ينقذني من وضعي الحرج في تلك الظروف الصعبة. فتارة تقدم لي "مصاغ " شقيقتي الكبرى كي أستعين به للسفر الى تركيا ومنها الى أوربا، وأخرى تضيف على ذلك "المصاغ "مقترحات ببيع بعض أشياء البيت الثمينة (بالنسبة الينا فقط) بسبب ما تتطلبه تلك الرحلة من مصاريف يعجز أبي الذي كان يرزح تحت ثقل ظروفه المادية عن مواجهتها. لقد كان كرمها يصل الى التضحية بكل ما في البيت لإنقاذ ولدها. الا أنه بعد التفكير والسؤال تبين أن تلك الرحلة كانت أقل ضمانا

لسلامتي من بقائي متخفيا هنا وهناك عند الأصدقاء في حلب. ثم ان العائلة بغرض تغيير عنوانها والتعمية على المستعمرين قامت بتغيير سكنها فانتقلت من حلب، حيث كان والدي يعمل بعد تقاعده من القضاء في المحاماة، الى دمشق.

الثاني: قبل العدوان الفرنسي على دمشق بعشرة أيام، أي في التاسع عشر من ايلول عام 1945، أوقفت مع شقيقي صلاح من قبل الفرنسيين: شقيقي صلاح كضابط في سلاح الهندسة وأنا كضابط في سلاح المدفعية. وكنا نسعى لتأليب قطعاتنا السورية على الفرنسيين في تلك الظروف التي اشتعلت فيها سورية من أقصاها الى أقصاها ضد المستعمرين واحتلالهم. وعند وقوع العدوان على البرلمان السوري أخذ المستعمرون يمطرون دمشق بقنابلهم ورصاصهم فهبت والدتي الى أشقائي الباقين عندها وقالت لهم: ان عليكم أن تخرجوا لمساعدة المواطنين بما تستطيعون فأنا لا أطيق بقاءكم في البيت في مثل هذه الظروف، وعليكم أن تتذكروا أن شقيقيكم في سجون العدو ومصيرهما مجهول، فهيا اذهبوا!..

الثالث: في الليلة التي كان علي فيها أن ألتحق بالمقر العام لجيش الانقاذ الذاهب الى فلسطين في مطلع عام 1948 حاولت أن أخرج من البيت دون أن أقلق راحتها وأن أوفر عليها موقف الوداع وهي التي كانت في تلك الأثناء في صحة متداعية أفنتها في خدمة عائلتها التي كانت تعد أحد عشر فردا. وكان ذلك قبل وفاتها بسنة واحدة وهي في الثانية والستين من عمرها. وقد أحست ولا أدري كيف أن غيبتي ستطول في هذه المرة وأنني ذاهب الى ساحات القتال، مع أنني كنت قد عودتها طويلا على السفر الى فلسطين والغياب بها عددا من الأيام في ذلك الزمن الذي كنت أعمل فيه في أركان "طه باشا الهاشمي" المفتش العام لجيش الانقاذ. لقد فاجأتني في غرفتي وأنا أتهيأ للخروج للسفر. ونظرت الي بعينين عاتبتين وقالت: أهكذا يا أحمد (وهو اسمي الأول الذي أعرف به في البيت) تريد أن تذهب دون أن تودعنا؟ نحن نحبك ونقلق من أجلك الا أننا نتفهم أن عليك أن تذهب وعلينا أن نصبر. ولسنا وحدنا فهنالك كثيرون غيرنا من أمتنا الذين أرسلوا ويرسلون أبناءهم الى ساحات الكفاح في فلسطين، فاذهب ولا تنظرن أبدا الى خلفك ولا يشغلنك الا واجبك. سر ياولدي على بركات الله!. وقد سرت ولحق بي ولدان آخران لها: شقيقاي صلاح وكمال .

ان العائلة التي أنتمي اليها معروفة بامتهان القضاء والإفتاء والإمامة منذ مئات السنين وذلك حسب ماجاء في التواريخ التي كتبت عن صيدا. وكان والدي قاضيا في الحكومة الفيصلية التي أغلقها الفرنسيون في بيروت عام 1918. وقام والدي بمهمة سياسية في حاصبيا ووادي التيم فعمل على تنظيم الأهالي وحشدهم للتوقيع على عريضة تطالب بإبقاء منطقتهم تلك ضمن سورية ضد رغبة الفرنسيين في ضمها الى لبنان. وكان هؤلاء بالاشتراك مع الانجليز قد تآمروا على تمزيق سورية الطبيعية الى سورية ولبنان والاردن وفلسطين. وقدمت العريضة الى لجنة كراين الأميركية التي

جاءت للتحقيق. ولكن مساعي فيصل لم تنجح ووقعت سورية اثر معركة ميسلون تحت الاحتلال الفرنسي الذي انتدبته عصبة الأمم حينذاك عليها. وحدث الانفصال بين سورية ولبنان فأخذ والدي الجنسية السورية وتبعناه في جنسيتنا. وتنقلت وظيفة الوالد في المدن السورية في القضاء: دمشق وحمص وحماة وحلب. وتبعا لذلك تنقلت في المدارس السورية الحكومية من ابتدائية واعدادية وثانوية وحصلت على البكالوريا السورية بتفوق في الرياضيات. وكنت حينذاك في حلب ثم ذهبت الى بيروت وانتسبت الى الجامعة اليسوعية لدراسة الرياضيات الخاصة التي أفادتني فيما بعد في اتمام دراستي كمهندس جغرافي في المعهد الجغرافي الفرنسي في باريز. كما انتسبت قبل ذلك الى الجامعة السورية في كلية الحقوق. ولكن ظروف والدي المادية لم تسمح لي حينذاك في اتمام دراستي الجامعية فالتحقت بالكلية العسكرية التي كان شقيقي صلاح قد سبقني اليها، ثم لحق بنا أخ أصغر فكنا في الجيش ثلاثة. وفي الكلية العسكرية كنت أكسب احترام الأساتذة الفرنسيين بسبب تفوقي وعلى الأخص في الرياضيات..

* * *